غرام الشعراء

اقصوصة فرنسية

كانت فتاة أسعدها الحظ وأسعدها الجمال ، ولدت من أبوين أحدهما الثروة وثانيهما الجمال ، فكأن الله أوجدها فتنة للعالمين ، تلعب بألباب الشعراء تارة ، وتارة تلعب بقلوب الطامعين

وكان اسمها مشتقاً من مصدر النصر فدعاها الناس بالأميرة لأنها حكمت إلهين إلهه الجمال وإلهه المال

انتصبت للناس صنما يعبده العاقل والجاهل ، رجل العواطف ورجل الأطماع ، فترنحت أعطافها من سكرة الدلال ، وأصبحت تطالع الملأ من على فتستصغر كل العاشقين

إن رجلاً يسعده الحظ بامتلاك قلب الأميرة ليتسنم فيه عرشين ويمتلك به سعادتين

مرت السنون والأميرة تحسب الدمع خلقة في مآقي الناظرين إليها ؛ ولولا قوة في الكون تسخر المال والجمال لكان قد قضى على الأميرة أن تغادر الدنيا بوحدانية جمالها لا تشرك به أحداً من الناس ، وما تلك القوة إلا الحافز الطبيعي لا يتمرد عليه إلا المتظاهرون بتذليله وهم في ادعائهم كاذبون

وكان في المدينة شاب ولد كما ولدت الأميرة من مصدري المال والجمال ، غير أن إلهه الشعر كان قد نفخ في روح الجنين خلسة فجاء الطفل يحمل إلى الدنيا جذوة الالهام

تصبت الشاعرة محاسن الأميرة فأحبها بروح شاعريته القدسية ؛ ورأت الأميرة فيه ما يهر غرورها فاستسلمت لغرامه ، وتراجع سائر العشاق بذلة الانكسار أمام الشاعر الثري الجميل ، وكان اسمه سعيداً[1] وله صديق اسمه جميل فكتب سعيد إلى جميل يقول :

« لقد رضيت بي زوجاً ، فما أسعدني بهواها ! وإنني لأشك أحياناً في سعادتي فأحسبني واهماً . وهل لمثل هذه الآلهة أن تحب رجلاً يموت ؟

ولكنني أعود إلى رشدي فأسأل نفسي عما دفعها إلى التسليم بقبولي زوجاً لها إذا كانت لا تحبني

لا أراني مضطراً إلى أن أقول لك ، وأنت الصديق الوفي العارف بما في سريرتي ، إنه لا مطمع لي في الحياة الا امتلاك قلب امرأة بكل ما في كلمة الامتلاك من معنى السيادة المطلقة ، تتربع في قلب لا وهن فيه ولا شرك ولا ضلال . أريد روحاً أبادلها روحي وحياة واحدة في جسدين . ذلك حلم الخلود أطمح إلى تحقيقه على هذه الأرض الفانية . إن الله لم يخلق الجمال عبثاً ، فانه وضع في إهاب الأميرة المثير للنيران قلباً يحترق هو نفسه بها . إنني أشكر الله لأنه أنالني ما اشتهيت »

وورد الجواب بهذه الكلمة :

« احذر ، فانك شاعر »

وكانت حفلة زفاف جللتها روعة الجمال ولمعت فيها بروق المال

اهتزت المدينة لهتاف الفرح ، وسار العروسان تحف بهما الأمجاد ويواكبهما العز على طريق السعادة والهناء

(١) ترجمت الأسماء عما يقابلها في العربية

تحت أغصان الربيع أمام الطبيعة الموشاة بحلاها السندسية كان سعيد يناجي عروسه بروح شاعر، وإذ قال لها: ألا تسمعين حفيف أجنحة السعادة حولنا، تنهدت تنهدا عميقا حسبه الشاعر صدى لنبرات إلهامه

وقضى العروسان شهر العسل في قصر من قصور الريف؛ وما مرت أيام بعده حتى أخذت الأميرة تشعر بالضجر في هذه الحياة الهادئة. فأصبحت تتعب من السير في ظلال الأشجار، وتحاذر الجلوس على المروج المزهرة خشية أن تنالها رطوبة من الأرض أو لفحة من الهواء

وكان أمير الشعر يدعو أميرة الجمال لترافقه إلى ممشى القصر القديم حيث يعرض جمالها الرائع على البدر المتطلع من بين الأزاهر الراقصة على أغصانها، ولكن الأميرة كانت تعلن أنها تخاف لفتات البدر وهو العاشق الأبدي يلفح الجباه بنظراته فيورثها الصداع

وعجزت حيلة سعيد عن إبداع ما يعيد الابتسام للجمال العابس، فقرر العودة إلى المدينة

وقال الشاعر في نفسه: لقد يكون قصر الريف قد أثر رياشه البسيط على روح إلهتي فلأقودنها إلى قصر أجدادي حيث الزخارف الرائعة والرياش الفخم، ولا فرق إذا سكن ملاك الجمال كوخاً في الحقول أو قصراً في المدينة؛ ولن يتمكن صخب المجتمع من إقلاق راحتنا وهي تجد في الدنيا، وأنا أجد فيها الحياة

وتفقدت الأميرة غرف القصر وقاعاته وعلى شفتيها ابتسامة الرضى، فهتف الشاعر لها وناجى آلهة إلهامه قائلاً: لقد فهمت أميرتي ما يدور في خلدي، وعرفت ما أحب وما أكره، فأميرتي تمثال أحلامي

* * *

ما أتعس قلب الشاعر! بل ما أبعد هيام الشعراء عن أهواء الناس! إن في بعض النفوس المشتعلة بلهب الأبد غراماً يستنزل العاطفة من عالم التجرد، وما وجدت هذه النفوس في الأرض إلا لتشقى، لأنها تطلب كوثر السماء من كؤوس التراب: تريد حياة من الموت، وتجرداً من المركب المنحل.

وكان الشاعر يجثو أمام أميرته مداعباً أوتار قيثارته فيستنطقها أجمل الأنغام، ولكن الأميرة كانت ترفع يدها إلى جبينها وتشكو الصداع؛ كان يأخذ الشاعر أروع القصائد ويتلوها على مسامع أميرته فلا تلبث أن تحول الحديث إلى بحث أنواع الطعام وما يصعب هضمه منها

كان يبدأ حديثه معها قائلاً: أفلا ترين ياحياة الفؤاد أن ... فتقاطعه شاكية حرارة الجو

وطفق اليأس يراود تجلد الشاعر

وتقدمت الأميرة يوماً إلى عابدها قائلة: ياسيدي العزيز

فانتفض الشاعر وقال في نفسه: لقد جاءت تبادلني حباً بحب، وقلباً بقلب

فقال: أليس جمال الحياة في ...

فقاطعته وقالت: في الأعياد والمراقص واستقبال الأصدقاء. أما حان الزمن للقيام بما يوجبه مقامنا الاجتماعي؟ إنك ستدعو قريباً أهل المدينة لوليمة كبرى يعقبها الرقص إلى الصباح، أليس هذا ما تريد يا سيدي؟

وسقطت صاعقة المادة على رأس ابن الشعر فانحنى منكسراً وفى عينيه دموع وفى قلبه نار

وكتب سعيد إلى جميل يقول :

« ليس بين الناس من يفوق شقاؤه شقائى ، إن أميرتى لا تفهمنى

لقد لاحت على وجهها ليلة المرقص بوادر انبساط وسعادة ما رأيت عليه مثلها ليلة زفافنا . عرفت طبيعة هذه الأميرة ، فهى عاشقة صاف وغرور ، فيها كبرياء وليس فيها عظمة ، فى صدرها أطماع وليس فيه قلب

تقدمت إليها وهى سكرى بانتصار جمالها فقلت لها همساً : أنت ياسيدتى زهرة بلا عطر . أنت امرأة بلا قلب ، وقلب بلا غرام

فلم تفارق الابتسامة شفتيها ، فكأننى لم أقل لها ماقلت . ثم تنازلت وحدقت فىّ قائلة : صدقت ، أيها السيد ، أنا الزهرة التى تسلب الطبيعة روعة جمالها ، وتنشق من النشر أريجه دون أن تجود بعطرها على أحد ...

ومرت أمامى ورأسها يشمخ كبرياء وتوارت بين الراقصين كأنها القمر الضاحك بين النجوم ، ولكننى أذكر أنها زودتنى بنظرة حسيرة لم أتمكن من إدراك مغزاها

اذرف منى دمعة على نفسى ، فأنا أتعس الناس »

وورد جواب الصديق هكذا :

« تذكر ما قلت لك ، فقد تأيد حكمى »

ووقفت أمام قصر الشاعر عربة تجللها رهبة الموت

نزل السائق عن مقعده وضرب باب القصر ، وكانت الشمس تودع الأرض وقد شحب وجهها المحترق . خرج الخدم وتقدموا إلى العربة فوجدوا فيها مولاهم مضرجاً بدمه ، وفى صدره خنجر وبين أصابعه ورقة خط عليها : « ليرحمنى الله ، فما هى الجانية على »

وانطرحت الأميرة على جثة زوجها وقد ريعت لهذا المشهد الهائل ؛ وعند ما ألصقت شفتيها بجبينه البارد كانت تناجى نفسها قائلة :

للزهرة أن تتوّر فى الروض مكتومة الأريج ، فانها إن لم تحى الصدور لا توقف نبضان القلوب ؛ أما المرأة الجامدة المغرورة التى حرمت نفحة الحب فهى بلية على نفسها وخطر على الناس . لعن الله يوماً جئت فيه الحياة بما لا يجدى ، وأنا محرومة من روح الحياة . إذا ما تلاشى الحب فى قلب المرأة فانه ليستحيل إلى سمّ زعاف يسرى فى عروق كل من يمد لها يداً . ويل لعاشق الزهرة البشرية التى لا عطر فيها

ومر جميل على قبر سعيد ليبكيه فرأى قرب اللحد زهرة نبتت بين حجرين حمراء ناضرة تتمايل مع النسيم . جثا الصديق الوفى وصلى فارتفع عبير الاخلاص من روحه ، وبقيت الزهرة كاتمة أريجها وهى شاحبة برأسها تباهى بجمالها

وحانت بين أجفان الصديق الوفى دمعة محرقة فقال :

لعلّ المرأة التى لا تحب قد استحالت إلى زهرة لا تجود بالعبير على قبر الشاعر ، ليكون هذا القبر كمن ثوى فيه مكللاً بحب الجمال محروماً من جمال الحب

ف . ف